مُقَدِّمة

المحمودُ بكلِّ لسان وعلى كلِّ حال، والذي بإحسانه ونعمته وفضله تتمُّ الصالحات: هو الله ﷻ وحده لا شريك له.

والمصلَّى والمسلَّم عليه دائماً وأبداً هو معلِّم الناس الخير نبيُّنا وسيِّدنا محمد ﷺ، والمرضيُّ عنهم صحابته وآله.

اللَّهُمَّ إني أسألك علماً بريئاً من الجهل، وعملاً عريّاً عن الرِّياء، ورأياً مقروناً بالتوفيق، وقولاً موشَّحاً بالصواب، وحالاً دائرةً مع الحق، ونيةً صالحةً مرفوعةً بالقبول، أما بعد:

فإن المراقب الملاحظ لكثيرٍ مما تقذف به خزائن دور النشر، وتدفعه أرحام المطابع، وتمتلئ به الأرفف، مما ينسب إلى دائرة العلوم الشرعية، ويضاف إلى طائفة البحوث الفقهية = يجدْه في غير قليلٍ منه، ليس مستحقّاً لهذه النسبة أو تلك الإضافة، بل هو في أصله ليس بحثاً علميّاً ابتداءً، ولا قريباً منه!.

إذ تغلب عليه السطحية والخطابية، والخفَّة وعدم العمق، وانعدام التأصيل، وتسري في مفاصله الأحكام المطلقة والتعميمات الكاسحة، وتحتوشه الرؤية الغائمة، والدوران الحائر حول الموضوع، واجترار القضايا، وتكرار المسائل، ونمطِيَّة التناول، وأما تواري الإنصاف وغياب الموضوعية فحدِّث دون تحرُّجٍ ولا تأثُّم!!.

وزاحمت ـ كالعادة ـ العملاتُ الرديئة والزائفة، العملاتِ النقية والصحيحة!.

وأهم أسباب هذه الأدواء:

فقدان المنهج السَّداد، وغُتْمة المنهجية، وخمود أو همود المسؤولية العلمية، ولن أرقى مرتقىً صعباً وحرِجاً فأتحدَّث عن ذهاب النية الصالحة، والقصْد الصحيح!.

إن تقاصر الالتزام بالمنهجية العلمية في «العلوم الشرعية»، أو عدم الصرامة في تطبيقها، بَلْه عدم وجود «المنهجية» أو غيابها، أو اعتقاد عدم الحاجة إليها: أدَّى إلى فوضى «علمية وبحثية»، في أبعادٍ ممتدَّةٍ متكاثرةٍ، دينيةٍ وقانونيةٍ، وإفتائيةٍ وقضائيةٍ، وأكاديميةٍ علميةٍ وتعليميةٍ، ودعويةٍ وتوجيهية.

وأنتج إشكالاتٍ منهجيةً وتربويةً وتعليميةً، متناسلةً، من مخرجات هذا النوع من التكوُّن والتكوين، وأثمر تحدياتٍ مضاعفة في أروقة التعليم الشرعي، وفي أبعاد المجتمع، في سائر الكيانات والشرائح، وآفاق الحياة.

لا جرم أنَّ مشكلة المنهجية في مناهج البحث في العلوم الشرعية هي فرع نبعةٍ واحدةٍ، ومكوِّنٌ عضويٌّ أساس، من غَرَب مشكلة أزمة تعليم العلوم الشرعية في هذا الزمن الصعب في آفاقها الممتدة.

إن البحث العلمي في العلوم الشرعية ليس دوراناً حول الماضي، ولا نبشاً للقديم، ولا تمجيداً للذات الجَمْعية!.

كما أنه ليس مضغاً لرجيع الآخرين، ولا شَيْم برقٍ خُلَّبٍ من «الجانب الغربي»، ولا نتفاً أو قلعاً وزرعاً أو ازدراعاً، مع اختلاف البيئات والمناخ!.

بل هو هدايةٌ وتوفيقٌ، واستحياء لعوامل النمو الخالدة، وعناصر البقاء الدائمة في هذا التراث الإسلامي العربي، العريق الأصيل الرائع، القريب البعيد، أو المبعد، واستثمارٌ لمناهج أئمته، واستنباطٌ لها منهم ومنه، وتوظيف صالحٌ ذكيٌّ موفَّقٌ، في تنمية هذا الحاضر الصَّعب الحرج، وحلٍّ مشكلاته، والإجابة عن إشكالاته، والمشاركة في بناء مستقبل هذه الأمة المرحومة.

وها هنا: يكون الوقوف حول قضيةٍ مفصليةٍ جوهريةٍ، هي قضية: «**منهج البحث الفقهي**»، لكن من خلال منظور معيَّنٍ، وبُعدٍ علميٍّ مختار، هو منهج الأئمة الكبار في تاريخنا العلمي، الذين اشتُهروا بعبقرية المنهج الفقهي، وكمال صناعة التأليف، وإتقان البحث، في مدوَّناتهم العلمية، ومنهم بل من مقدَّميهم: الإمامُ ابن

دقيق العيد (ت٧٠٢هـ)، الذي وقع الاتفاق على أنه مجدِّد المئة السابعة ـ رحمه الله تعالى.

ومن خلال: المقدِّمة المنهجية الرائعة الموفَّقة لكتابه: «**شرح الجامع بين الأمهات**».

مقاصد هذا البحث:

إن من أهم مقاصد هذا البحث، وأهداف هذه الدراسة:

١ ـ بيان معالم وأصول «منهج البحث الفقهي» لدى أحد أكبر أعلام الفقه الإسلامي.

٢ ـ المساهمة في تأصيل «المنهجية العلمية» للبحث الفقهي، وفي تجويدها وصقلها، وفي ترقيتها ورفع بنائها.

٣ ـ المشاركة في تنقية كتابة البحوث الفقهية المعاصرة، من جوانب الخلل والقصور والارتباك، من خلال استدعاء الأجوبة التراثية المسدَّدة على المشكلات المنهجية الآنية.

٤ ـ تأنيس جملة من حملة العلم الشرعي بأمر «المنهجية البحثية والعلمية»، وتألُّفهم؛ ببيان سلفيَّة هذه المنهجية وتراثيَّتها، وأنها ليست من محدثات التعليم الحديث، وتوضيح ضرورتها العلمية والدينية، وضرورة الائتساء بالأئمة الأعلام في متابعتهم عليها، لا في فروع الاختيارات وجزئيات الشعارات فحسب!.

كلُّ ذلك خشية أن يتحول هذا التراكم البحثي إلى ركام؛ ولئلا يؤول في جملةٍ غير قليلةٍ منه إلى عبءٍ آخر وإشكالٍ جديد،

وأنقاضٍ دون إبرام، عوض أن يكون حلّاً منتجاً صحيحاً، وجواباً موفَّقاً مسدَّداً.

خطة البحث:

تنتمي هذه الدراسة، وهذا البحث إلى مجموعة «**مناهج البحث العلمي**»، الفقهيِّ منه على الخصوص، وتتطلب طبيعة وموضوع هذه الدراسة ـ أن يكون على قسمين رئيسين ـ:

الأول: إخراج نصِّ هذه المقدمة = مقدمة شرح الإمام ابن دقيق العيد على الجامع بين الأمهات، للعلامة ابن الحاجب، وتقويم نصِّها، والعناية بها.

الثاني: توسُّم قراءة نصِّ هذه المقدِّمة، وتوظيفها واستثمارها، في بيان «**معالم منهج البحث الفقهي عند الإمام ابن دقيق العيد**» الذي هو عنوان هذا البحث، من خلال ما أصَّله ورفع بناءه وقرَّره الإمام ابن دقيق العيد نفسه، في آثاره الأخرى، وفي ظلِّ معطيات كتابة البحث الفقهي.

منهج البحث:

وقد قسم الله تعالى الهادي ووفَّق وهدى إلى جعله في ثلاثة مقاصد، تسبقها توطئة، وتعقبها خاتمة، فجاء كما يلي:

ـ **توطئة**: مناهج البحث الفقهي ـ هذه المقدِّمة المنهجية ـ منهج القراءة والعناية والتوسُّم.

ـ **المقصد الأول**: وفيه فرعان:

الفرع الأول: المصنِّفان، وفيه مطلبان:

الأول: الإمام ابن الحاجب، ترجمة دالَّة.

الثاني: الإمام ابن دقيق العيد، ترجمة هادية.

الفرع الثاني: المصنَّفان، وفيه مطلبان:

الأول: التعريف بـ «الجامع بين الأمهات».

الثاني: التعريف بـ «شرح الجامع بين الأمهات».

ـ **المقصد الثاني**: نصُّ مقدِّمة الإمام ابن دقيق العيد لشرح «الجامع بين الأمهات».

ـ **المقصد الثالث**: معالم منهج البحث الفقهي عند الإمام ابن دقيق العيد، من خلال مقدِّمة «شرح الجامع بين الأمهات».

ـ **الخاتمة والنتائج**.

والحمد لله تعالى أولاً وآخراً، هو وليُّ كلِّ نعمة، ومُسدي كلِّ خير، اللَّهُمَّ اجعل أزكى صلواتك وأنمى بركاتك وأشرف تحيَّاتك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه:

د. عادل بن عبد القادر بن محمد ولي قوته

ليلة الجمعة ١١ من صفر الخير ١٤٣٣هـ

الموافق تماماً لمرور سبعمئةٍ وثلاثين سنة

على وفاة الإمام ابن دقيق العيد ـ رحمه الله تعالى

٦ يناير ٢٠١٢م

سيلانجور ـ دار الإحسان ـ ماليزيا